الأستاذ أحمد شفيع السيد

انتقل إلى رحمة الله منذ ثلاثين عامًا، ولا تزال ذكرياته الطيبة تملأ نفوس تلاميذه. لأنه كان نمطًا فريدًا فى سماحة النفس، ورحابة الصدر، وبذل العون المسعف، مع فكاهة نادرة، ودعابة فريدة، هذا إلى أستاذيته الأدبيّة فى فنّه، ومقدرته الشعرية ذات البديهة الحاضرة، أذكرُ أن صديقى الأستاذ أحمد الشرباصى قد خاض معى فى سيرة أستاذنا الكبير، فقالَ فيما قال: إنّ العهد بالتلميذ أن يمدحَ أستاذهُ بقصائده، ولكنَّ الشيخ أحمد شفيع كانَ يمدح تلاميذه إذا رأى من بوادر النجابة فى مناقشاتهم ما يدلُّ على استعداد، ثم عرضَ علىَّ قصيدة جيّدةً قالها الأستاذ فى تلميذه أحمد الشرباصى، وفيها يقول عنه:

قبسٌ من الإصلاح لاحَ بصيصهُ ... سيزيدُه كر المدى إشعالاَ

وإذا رأيتَ الفجر يبسم ضَوْؤُه ... فارقبْ لأنوار الضحى إقبالاَ

فالبحرُ ماذا كان؟ كان جداولا ... والبدرُ ماذا كان؟ كان هلالاَ

والأُسْد فى وَثَبَاتِها وَثُبَاتِها ... درجتْ على آجامها أشبالا

وكنتُ منذ التحقتُ بالكلية أسمع عن مآثره مايملأ الصدر إعجابًا، ولكنه يُدرّس للسنة الرابعة، وأنا بالسنة الأولى، ولا سبيل إلى التعرّف به، لأنّى لا أحبّ أن أفرضَ مودّةً بدون تمهيد، ثم حقّق الله رجائى، حين جاء الامتحان الشفوى آخر العام، فكان الأستاذ أحد أعضاء اللجنة، وبدا أنّه كان يسمع عنى، ويقرأ مشجعا بعض ما أكتب، وانتظرتُ أن يسألَنى فى المقررّ المدروس نحوًا وبلاغة، ونصوصًا

وقرآنًا، كما ينصّ قانون الامتحان، ولكنّه فاجأنى بقوله: لا أريُد منك غير إجابة واحدة عن سؤال واحد، فإذا وفقك الله فستستريح من الأسئلة المتعدّدة! مارأيكُ فى كتاب (الأدب الجاهلى) الذى درستَه بالكلية هذا العام؟ قلتُ: إن الكتاب من تأليفِ أستاذنا الضليع محمد هاشم عطية، ومكانتُه الأدبيّة لا تُنكر، ولكنّى أرى أن تقيده بموادِ المنهج الدراسى، قد أتخمَ الكتاب من ناحيةٍ، كما لم يُسعف المؤلف بالتحليل الكاشف لبعض المسائل الدقيقة التى تتطلب الأناة!

ابتسم الشيخ ونظر إلى زملائه مفرسًا، ثم قال: أريدُ بعض الإفصاح عمَّا أجملت، قلُت: لقد تكلّم الأستاذ الجليل عن قضايا البيئة الجاهلية، وعن الانتحال فى الشعر الجاهلى، وعن أيام العرب، وعن الأمثال والحكم والوصايا والخطب، وعن المعلّقات، واختلاف الأنظار فى ملابساتها وتسميتها، ثم أفرد لكل شاعر ترجمةً تفيض بأخباره، مع ذكرِ نصوص فى الأغراض المختلفة للشعر الجاهلى، وهذَا كلّه لايبلغُ مداه فى التحقيق العلمى بكتاب واحد، والأستاذُ قادر كل المقدرة على أن يخص كلَّ موضوع بكتاب مستقل، ولكنه المنهج!

قال الشيخ: وما رأيُك فى أسلوب الكتاب التعبيرى؟ قلت: إن بعضَ الأساتذة يأخذون عليه إبداعه الفنى، فى حلاوة السرد، وجمال التركيب، وتعدد الصور، ويرونَ ذلك عائقًا عن استشفاف الحقائق الأدبية، والأولَى أنْ تُصاغ بأسلوبٍ علمى خالص، ولستُ مع هؤلاء، لأن المؤلف لم يجمحْ به الخيال إلى ما يعد غريبًا عن موضوعه.

فكلّ ما ذكره يدور فى فلكِ الأدب الجاهلى، أما جمالُ الأسلوب، وحُسن انسجامه، فمما يُحسب للكتاب، ولا يمكن أن يكون موضَع مؤاخذة، لأن تاريخ الأدب يزدادُ بهاءً وقُربًا إلى النفس إذا كُتب بلغة الأديب، والمؤلف أديب موهوب، فلابُد أن يكون نتاجُه صورةً من أدبه، وأشهد أنّ حقائق الكتاب من الوضوح والدقة بحيث لم تسبح فى محيط زاخرٍ كما يقول بعض الأساتذة، وهذا رأيى.

فالتفتَ الأستاذ إلى زملائه، وقال: إننا نعد الطالب ليكون ذا نظرة أدبيّة

مستقلّة، وليستطيع التعبير عن نظرته هذه فى وضوح ويسر، وقد كانَ للطالب نظرته الكاشفة، وتعبيره الهادئ، ولن نطلب منه أكثر من ذلك، تفضّل يا بنى مشكورًا فقد أجبت! وخرجتُ متعجبا أن أُسْأَلَ سؤالاً واحدًا! ثم رأيتُ درجاتى فى الامتحان قد وصلتْ إلى النهاية المرموقة! فذهبت إلى شكره قائلاً: لماذا لم تسألنى فى النحو؟ قال قد سألتك لأنك لم تخْطئْ فى تعبيرك، لم تكن اللجنة نائمة!

دعوة حبيبة:

مضتْ أيام، وظهرتْ مجلة الرسالة حافلةً بنقاشٍ علمى مُثْمر بين تلميذيْن نجيبين من تلاميذ الأستاذ أحمد شفيع، هما الدكتور على العمارى، والدكتور كامل شاهين، وكانَا لا يزالان مدرسين بالقسم الابتدائى، ودار النقاش حول علوم البلاغة بين التقليد والتجديد، لأنّ العمارى قد قرأ كلامًا للأستاذ الكبير أمين الخولى انتقص فيه جهود القدماء فى الحقل البلاغى، ونادَى بالتجديد فى أمور يعدّها من ابتكاره الموفَّق، فكتب العمارى عدة مقالات يُحاول فيها توهيَن ما اتجه إليه الأستاذ الخولى، ورأى الأستاذ كامل شاهين أنّ مقالات العمارى تحتاجُ إلى نقدِ كاشف، فردّ بمقالات معارضة، وتطرّق الزميلان إلى عباراتٍ ليست من النقد الأدبى فى شىء، وتعد خروجاً عن التى هى أحسن، وقد قرأ الأستاذ شفيع ماكتبَ تلميذاه، فحدّدَ لهما موعدًا لتناول الغداء لديْه، وبعثَ بمن يدعُونى مع الصديقيْن، وكنتُ لم أعرفهما من قبلُ، فتم اللّقاء الكريم فى منزل الشيخ النبيل، وقد اتجه النقاش إلى مُباسطات أدبيّة لطيفة، ثم قال الشيخ رحمه الله:

لقد ألّفَ الأستاذ إبراهيم مصطفى كتاب إحياء النحو، ومعَ نظراته الموضوعية السديدة وجدناهُ ينتقص القدماء بدون موجب، فانبرَى الأستاذ محمد عرفة للرد عليه فى كتاب (النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة) وقد عَرضَ كتابه على الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ليكتب مقدمتَه، ولكن الشيخ الأكبر رأى من عبارات الهجوم القارص ما يبعُد عن مجال النقد العلمى النزيه، فأشارَ على المؤلف أن يحذف كلّ

ما ينبئ عن التنقيص، لأنّ الجدلَ لايستقيم مع الثلب! ونزلَ الأستاذ عرفة على رأيِ الأستاذ الأكبر، فجاء كتابه مثالا للنقد الجاد، وقد قرأتُ ماكتبه العمارى وشاهين، فأعجبتُ بالنظرات الصائبة، والمنطق السديد، ولكنى وجدت هجومًا بدأه العمارى على الأستاذ الخولى، وأنا لا أوافق عليه، لأنّ النقد البلاغى لايستدعى الهجوم الناقم، ثم جاءَ كامل شاهين، فهاجمَ العمارى بعبارات لا مبرّر لها، واندفع العمارى إلى مثل ما بدأ صاحبه، بل زادَ عليه كثيرًا، وقد دعوتُكما الآن لنتعاهد على حرية النقد من ناحية، ثم على تجنب العبارات اللاذعة لأنها تسىء ولا تفيد! فما رأيكما؟

قلت: وأنا معك ياسيدى، فقال الزميلان: هذا درسٌ مفيد، ولن نحيد عن الحسنى بعد الآن!

صداقة عريقة:

توثّقت علاقتى بالأستاذ الكبير إلى درجةٍ لم تُتح لى مع أستاذ آخر، بلْ لَم أشهْد نظيرَها فيما أعلم، ولمستُ من حَدبه على طلابه ما بَلغ حدَّ العجب، لأنه كان يبذلُ ما يستطيع فى تحقيق رغباتٍ مستعصية لذوى الحاجات ممّن عضّهم الدهر بنابه، وأذكُر بهذا الصدد حادثة طريفة سردتُها فى ترجمة حياته، ولكنّى أُعيدها لتكونَ مثالا للأبوة الحانية، والمروءة النبيلة: فقد زاره ذاتَ ليلةٍ بعضُ تلاميذه، وعليه من سماتِ الحزن والحيرة مالا مزيد عليه، فدهشَ الشيخ لما تَلَبّثَ الطالبَ من الارتباك اليائس، وعجّل بسؤاله عن بواعث ألمه، فقال: إنّ والده كان موظفًا بدائرة الأمير عمر طوسون، وقد فُصِل بالأمس لوشايةٍ كاذبة، ففقد مصدر رزقه الوحيد، وهو رب أسرةٍ كبيرة، وله طلابٌ بالمدارس والجامعة، وليسَ يدرى الطالبُ شيئًا عن مستقبله ومستقبل إخوته الذين يسكنون معه بالقاهرة طُلابا مثله، فَصرَفه الأستاذ مهدِئًا على أن يعود إليه بعد يومْين، ولم ينم ليلته، بل نَظَم قصيدةَ استعطافٍ حملها بنفسه إلى مقر الأمير بالإسكندرية، وسافر من الصباح متّجهًا إلى شيخ المعهَد الدينى بالثغر، وكان علَى صلةٍ وطيدة بالأمير، فطلَب منه أن يحدّدَ مع

سكرتير الأمير موعدًا للقائه اليومَ، وشرح لفضيلة شيخ المعهد ما جاء من أجله، وسرعاَن ما تحدد الموعد، وتقدّمَ الزائران فوجدا من حُسنِ الاستقبال وبشاشةِ اللقاء ما شجّع الشيخ شفيع على أن يُنشد قصيدته وكان مطلعها:

نحنُ فى منزل الأمير ولا فضلَ   لدينا يعلُو لقاء الأمير

فاستمع الأمير سعيدًا بما قال الأستاذ، وعُرِض الأمر عليه فى إيجاز، فقالَ فى اهتمام: هذا المطلبُ الصغير لا يَستدعى أن يحضَر فضيلة الأستاذ أحمد شفيع من القاهرة بنفسه، وكانَ عليه أن يتَفضّل بحديث تليفونى ليجدنى طوعَ رغبته، ثم أصدَر أمره الفورى بإعادة الموظف المفصول معَ زيادة راتبه خمسة جنيهات، وكان يتقاضَى عشرة قبلها! ورجع الأستاذ فى المساء إلى القاهرة وهو فى أكمل سعادة، لأن للمروءة مذاقا شهياً لدى الكرام من ذوى العواطف النبيلة.

هذه قصّة دالة، ولها أمثلة كثيرة، ودلالتها واضحة لاتحتاج إلى تفصيل.

اهتمام علمى:

كنتُ فى زيارة الأديب الكبير الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى أثناَء إقامته بأحِد فنادق القاهرة، فحدّثنى عن رغبته فى لقاء أستاذِ متخصص فى الأدب الأندلسى، لأنّ لديه بعض المعضلات العسيرة التى تَتطلّب الحلّ على يد باحث متخصص! فذكرتُ اسم الأستاذ أحمد شفيع السيد، وحدثتُه بما أعلم من فضلِه العلمى، واطلاعِه الشامل، وهو بعد أستاذُ الأدب الأندلسى بالكلية، فارتاح النشاشيبى لماسمعَ، وكَتَبَ لى بطاقة يدعوه فيها إلى تناول الغداء معه بالفندق، وسارعتُ إلى الشيخ، فقرأَ البطاقة مفكرًا، وقد عَلاَهُ سهومٌ لا عهد به، فقلتُ: ماذا؟ قال: يا بنى: إن العلامة النشاشيبى بحرٌ زاخر، وقد ناقشَ الفحول من أمثال أحمد العوامرى، وأحمد أمين، والرافعى، والإسكندرى، فأوفى على الغاية عُمقًا واستنتاجًا ودقة ملاحظة، فأيْن أنا منه؟ ثم إذا كانَ الأمر كذلك، فاذهب إليه اليوم مُدعيًا أنك لم تجدنى، وتحر عن موضوعِ النقاش لأستعد، فذهبتُ إلى الأستاذ، وعرفت منه أنَّ النقاش سيدورُ حول شخصيّة ابن بشكوال المؤلف الأندلسى

صاحب «الصّلة» وغيرها، ولم أكد أخبر الشيخ حتى عكف على قراءة مؤلّفات ابن بشكوال، ثم امتد إلى قراءة ماكتُب عنه من ترجمات وشذور فى مختلف الكتب الأندلسية، وبذلَ جهدًا فى هذا النطاق، وكأنّه يستعد لتأليف كتاب خاص بالرجل، ثم أُتيحت المقابلةُ بعد أسبوع كما أرجأ الشيخ، وذهبت معه إلى لقاء النشاشيبى فوجدنَا مانعهد من كرم اللقاء، وبدأ النشاشيبى يذكر ملاحظات عن ابن بشكوال، والأستاذُ يجيب فى دقّة، ويعلّل ويشرح فى إسهاب، حتّى بلغَ مبلغًا كبيرًا من نفس إسعاف، وشدَّ على يده مُرَحِّبًا، وأهدى إليه بعض كتبه فى عبارات تصفه بالأستاذية الكبرى، ورجع الشيخ سعيدًا مبتهجًا باللقاء، ولكنّى قلت له فى الطريق: لماذا أحجمتَ عن نقاش النشاشيبى قبل أن تعرف موضع البحث؟ إنّنى أناقشه كما أشاء بدون تهيب، فقالَ الأستاذ: يارجب، أنت لا تزالُ طالبًا، وإذا أخطأتَ فى نقاشك فلن يقول إن طالبًا قد أخطأ، لأن الطالبَ مظنة الخطأ، وقد قدّمَتنى إليه أستاذًا للأدب الأندلسى بكلية اللّغة العربية بالأزهر، فإذا تعرّضتُ للنقاش فى مسألة لا أعلم عنها شيئًا، وقلتُ مالم يقنع الأستاذ فماذا يكونُ نظرُه إلىّ؟ بل ماذا يكونُ نظره لعلماءِ الأزهر وأساتذة الكليات؟!

موقف آخر:

أعدّ أحد طلاب الدراسات العليا بتخصص الأدب رسالةَ الأستاذية (الدكتوراه) بعد أن بذلَ جهده الجاهد سبَع سنوات لايفتُر عن العمل الجاد، وأُلفت لجنة المناقشة برئاسة الأستاذ الكبير حامد محيسن عضو هيئة كبار العلماء، وعميد الكلية السابق، ففوجئ الأستاذ أحمد شفيع بمجيء الطالب إليه شاكيًا متألما، لأن رئيس اللجنة قابله بنفور شديد، وأخْبره أنّه أكثر من المراجع إلى حد الإتخام، حتى ليكاد يكون ناقلاً لا باحثا، فأمر الشيخ شفيع بإحضار نسخةٍ من الرسالة، سارعَ الطالب بتقديمها إليه، فقرأها قراءة مستوعبة، ثم ذهبَ إلى منزل الأستاذ حامد محيسن، ليسأله عن سرّ غضبه على الباحث، فقال الشيخ ـ وكان ذا حدّة ـ إن كثرةَ المراجع التى يتباهى بها فى آخر الرسالة تدلّ على أنه ناقل فقط! قال الشيخ: لقد عكفت على قراءة الرسالة أسبوعًا، ووجدت الدارس قد أجادَ فى مواضع مختلفة،

وأخرجَ مذكرة من جيبه سردَ فيها مواضع الإجادة، وإذا كان قد أكثرَ من المراجع فهذا مما يُحمَدُ له، إذْ دَلّ على وفرة الاطلاع، فقال الشيخ: لستُ معك فى هذا المنحى فضحك الشيخ شفيع وسأله: هل لو اقتصر الباحث على مرجع واحد أيكونُ قد أدَّى واجبه على نحو يرضيك! فقال الشيخ وكأنه يكابر: المرجع الواحد إذا كان أصيلاً يكفى! إن السطر الواحد من الكتاب الجيد يتضمن المحمول والموضوع، والمنفى والمبثت، والمسند والمسند إليه، وكلّ هذه مجالات للبحث العلمى الدقيق فماذا تقول يا شفيع! فقال الشيخ: لقد نسيتَ أن الدارس مبتدئ، وأنّه يكتب أول بحث علمى جاد، وسينتفعُ بملاحظاتك وتوجيهات اللجنة عند النقاش، وحينئذٍ سيسلك النهج الذى سترتضيه، ثم إن زملاءهَ ليسوا أفضل منه، وقد قُبلت رسائلهم، فلماذا لا تخصّه بفضلك، فيكون تلميذًا من جنودك، يذكر لَكَ فضل التشجيع والتنويه! قال الشيخ: تلك هى المسألة: الميزان ليس واحدًا، فما أدقّق فيه لا أجد أحدًا يلتفت إليه؛ لن أكون نحسًا على الطالب، فابعثْه لأحدد له موعد النقاش، قالَ الشيخ: جزاك الله خيرًا، وتابَع المسألة، وحضَر مجلس النقاش، ونال الطالب ما يرتضيه!

هذه بعض مروءات الشيخ الكريم! وأقول بعض المروءات، لأن لدى من أمثالها الكثير!

***

الأستاذ على أدهم

يهتم الأستاذ على أدهم بما يبدع من آثار فكرية، فمقالُته الواحدة تُعطى من الثمار الشهية، ما يشبع ويمتع، أما كتابه ذُو الفصول فعملٌ منسق متكامل، يُشبه البناء الهندسى القائم على أسس وطيدة، وكل لبنة من لبناته ذاتُ قوة متماسكة فيشد البنيان بعضه بعضًا ليبقى ناهضًا شامخًا، وكنت الحظ بُعده عن الأضواء، وعكوفه الزاهد فى صومعة الفكر، فأعدّه ناسكًا يؤثر الانزواء، ولكنّ الذين صادفوه يذكرونَ مِراسَه القوى فى المجادلة، وخبرتَه الدقيقه بالنّفس البشرية، وقد أوحتْ له مزيدًا من الترفع حتى ليعتبره الناس كبرياء لا ترفعًا، والكبرياءُ حبيبة أثيرة حين تعلو على الأدعياء والمتشامخين، أما الأصلاء فزملاء فى مستُوى خُلقى متقارب، فلا تَرَفُّعَ ولا استعلاء.

وقد رأيت من واجبى أن أشيد ببحاثة ضليع مثله، فكتبتُ مقالاً بمجلة الثقافة، قلت فى مطلعه:

منذ أخذتُ أقرأ للأستاذ الكبير على أدهم مقالاته الرصينة، وأنا أتذكّر به العقّاد فى كل فصل أقرؤه، وأعقد موازنةً صامتة فى نفسى بين ما قاله أدهم، وما يمكن أن يقوله العقاد لواتجه إلى معالجة ما عالجَهُ أدهم من أفكار، إذْ وقَر فى ذهنى أنّ أدهم أقربُ الكاتبين فى العربيّة إلى منحى العقاد، وليسَ معنى ذلك أنه يحتذيه، فَلِلأُستاذ أدهم شخصيته الخصبة فى كل ما يكتب، بل إنكَ لتجدُ فيه واقعيةً واضحة، وتسامحًا متواضعًا، وإغضاء صافحًا، فيستأثر بشعورك استئثارًا لا تحيد عنه، ولا أدرى لماذا لا تُعدّ الدراسات العلمية لإنتاجه الحافل الخصيب؟ ولماذا

يتعداهُ الباحثون إلى أناسٍ لا يبلغون مبلغ تلاميذه؟ يُخيّل إلى أن شخصية أدهم قد ساعدت على هذا التجاوز المعيب، فالرجُل هادئ قانع، لا يحاولُ أن يعقد مودّاتٍ ذات نفع مزدوج بين الكتّاب فيشيد بهم، ويشيد وابه على نحو مانرى».

وامتدّ المقال إلى صفحات صادقة تُحلّل أراء الكاتب الكبير فى نَفَرٍ من شعراء العربيّة، وكان أخشى ما أتوقّعه ألاّ يجد به الأستاذ ما ينبئُ عن الحقيقة العلمية التى أحاول تسجيلها، ولكن الرجل العاطف المشجّع قد كَتب إلىّ خطابًا حارا نشره الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدسوقى بعدد ستبمبر سنة ١٩٧٩ من مجلة الثقافة، قال فيه:

«لقد أسعدَنى الحظ بالاطلاع على مقالك القيّم فى الثقافة، وكنتُ أشعر فى خلالِ قراءته أنى أطالِعُ فصلاً من فصول أمثال سانت بيف، وماثيو أرنولد، واسبنجادن، وغيرهم من أساتذة الأدب والنقد، الذين طالما استمتعتُ بالاطلاع على آثارهم الأدبيّة، ودراساتهم فى النقد، وأرجو الله أن يمتعكَ بالصحة والعافية، لمتابعة السير فى هذا الطريق، الذى لاشك فى أنّه سيعود بالنفع الجزيل على حياتنا الأدبيّة، ويسمُو بالنقد إلى المستوى الرفيع، ويرقى بالثقافة المصرية العربية!».

هذا ما قاله الأستاذ فى فاتحة خطابه، وهو تشجيعٌ هادف لكاتبٍ كل ما يملكه هو الصدق المخلص فيما يكتب ويُقرِّر، وكنتُ قد أشرتُ إلى دراسة نقدية كتبها الأستاذ أدهم عن الشاعر الكبير عبد الرحمن شكرى، فقلت إنى أحَسُّ إحساسًا قويّاً أن أدهمَ المتحفظ قد كتبَ المقال، وفى ذهنه أن صديقه الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد سيقرأُ ما يكتب، وليت شعرى أيُصدّق أحد أن العقاد الدقيق يضع اسمه على كتاب (الديوان) دونَ أن يعرفَ سلفا كل ما سيكتب فيه؟».

قلتُ ذلك فى خاتمة المقال، ولم يشأ الأستاذ أدهم أن يسكت عمَّا كتبت، فقال فى خطابه: إنه عاصر فترة الخلاف، وإنه يعرف من خفاياها ما يجهله الكثيرون، وقد كانَ الأستاذ العقاد يقدّر شكرى تقديراً عاليًا، ولم أسمع منه كلمة سوء فى أدب شكرى أو شخصيته».

ثم مضت أيام، ووصلنى خطاب من الأستاذ أدهم يُعلن أنّه يعانى بعضَ عقَابيل المرض، ويُسعده أن أزورَه حين أمرّ بالقاهرة، وكنتُ أعرف احتجاز أدهم وعكوفه، فلم أشأ أن أبدأ بالزيارة التى أحرص عليها كيلا أتطفّل على خلوته، فلما جاءنى خطابُه الكريم، بادرتُ لأطفئ ظمأً أحسّ به، وليس من السهل أن يظفر الإنسان بحديثٍ مع أستاذ فى مستوى أدهم، والغثاء كثير.

لقاء فريد:

وأقول: إنه لقاء فريد، لأنه لم يتكرّر مرّة ثانية، فهو فريدٌ من هذا الناحية، كما أنّه فريدٌ من ناحية أخرى أهم وأعظم، إذْ أتاحَ لى من الفوائد الجزيلة ما أضاء بعض الظلمات فى أمورٍ كانت تشكل على، وقد بدأ الأستاذ بثناء تشجيعى يحاولُ أن يدفعنى به إلى الأمام، ثم قالَ إنّه يغتنم هذا اللقاء ليتحدث عن علاقةِ شكرى بالعقاد! فقلتُ: ما أَحَبَّ إلىَّ أن أسمع ما أعتز به من ناقد خبير!

قال الأستاذ: قبل أن أتحدث عن شكرى والعقاد أعلن أن نفرًا من الكاتبين كان من همهم أن يوقدوا اللّهيب بين شكرى والعقاد، والعقادُ غَضُوبٌ لا يصبر على مهاترة، وهو يعرفُ تمامًا أن «شكرى» بعيد كلّ البعد عن محاولات من يَروْن إذكاء الوقيعة بينه وبين شريكه فى البناء التجديدى للشعر، كما يعلم أن هؤلاء لا يقصدون تمجيد شكرى قدرَ مما يقصدون انتقاص العقاد! كما يحاول فريق آخر أن يرتفعوا بمطران إلى حيثُ يجعلونه كل شىء فى التجديد الشعرى، ليضيع نصيب شكرى والعقاد والمازنى من التجديد هباءً!

يعرفُ ذلك العقاد جيداً، فيأسف للظروف التى أدّتْ إلى مخاصمة المازنى لشكرى، فجعلتْ مدرسة التجديد الشعرى التى نهضتْ على أكتافِ هؤلاء الثلاثة مثار القال والقيل!

قال الأستاذ أدهم: وهذا ما أحبّ أن أؤكده قبل أن أشرح حقيقة العلائق بين الأصدقاء الثلاثة، فالعقادُ معجبٌ بشكرى كلّ الإعجاب، وشكرى لا يقلّ عن صاحبهِ إعجابًا به، ولكن كيف بدأ الثلم الصادع فى هذه الأخوة الأدبيّة الحميمة؟

لقد كانَ المازنى أسبقَ الكُتَّاب فى الاعتراف بمنزلة شكرى، وقد كتَب نقدًا عن حافظ إبراهيم جمعهُ فى كتاب خاصّ، وقد انخفضَ بشعر حافظ ليرتفع بشعر شكرى، فى مجال موازنةٍ نقدية حافلة بالشواهد الشعرية مما قاله حافظ وشكرى معًا! وقد قالَ المازنى فيما قال: إن حافظا لا يقول الشعر إلاّ فيما يُسأل فيه من الأغراض، بيد أنه على ما به من ضيق فى المضطرب، وتخلُّفٍ فى الخيال، كان أفصحَ لسانٍ تنطق به الصحف، أمّا شكرى فشاعر لا يصعدُ طرفه إلى أرفع من آمال النفس البشرية، ولا يصوّبه إلى أعمق من قلبها، وهو لا يبالغ كحافظ فى تحبير شعره وتدبيجه، بل حسبُه أن يُسمعك تدفق الدماء من جراح الفؤاد، وأن يُفْضى إليك بنجوى القلوب، وأن يُريك عيون الندى على خدود الزَّهْر، وافترار ضوء القمر على مكفهر القبور، ووميض الابتسامات فى ظلام الصدور، وأن يغوصَ بك فى لجج الفكر، ليكشفَ لك عن معانٍ لا يُدركها التعبير، ويتناول أبْسط معانى الطبيعة والعقل وأشدها ارتباطًا بالحياة، واتصالاً بالنفس، ثم يصوغ لكَ منها شعرًا نقى المستشف، كثير المآثر، جم المحاسن».

هذا ما قاله أدهم بمعناه، وقد رجعت إلى ماكتب المازنى لأنقلَ اللفظ الحقيقى، وقد جاء المغزى مطابقًا كلّ المطابقة لما قال الكاتب الكبير.

ثم قال أدهم: كان المنتظر من شكرى بعد هذا الثناء الصادق، أن يكون هيّن النّبرة مع المازنى، وإذا آخذهُ على شىءٍ فمؤاخذة الحبيب الودود، ولكنّه حين أصدرَ ديوانه الخامس صدَّره بمقدمة هاجمه فيها هجومًا عنيفًا، فقال: إنّه لا يراعى حرمةً، ولا يردعه ضميرُه عن السرقات العظيمة، وضربَ الأمثلة بما سرقه المازنى عن «هينى» الشاعر الألمانى، و «لويل» الشاعر الأمريكى، و «أديسون» الكاتب الإنجليزى».

وطبيعى أن المازنى قد تأثرَ بأسلوب صاحبه النقدى، إذ كانَ فى مُكنته أن يجعل النصيحة فى محادثةٍ شخصيّة، أو فى رسالة خاصة بين الصديقيْن، وإذا لم يجدْ

شكرى بُدا من الإفصاح للقراء، فَبِالّتى هى أحسن، لا بالتى هى أقبح فنفّس المازنى عن غضبه بمقالات ناريّة تناولت شعر شكرى، فقلَبْته من وضع إلى وضع، وبذلَ العقاد جهدَه فى لَمِّ الشمل، فوُفّق إلى وقتٍ قريب، ثم عاودَ شكرى النّقد عاصفًا على صفحات جريدة عكاظ التى كان يصدرها الشيخ فهيم قنديل، ولم يقصر هجومَه على المازنى، بل امتد إلى شعر العقاد، وبالغ فى القسْوة إلى حد مستغرب، وكانَ المظنون بالعقاد أن يمتشقَ القلم ليأخذ بحقه، ولكنّه طَوَى صدره على أسف لما كان، وتركَ للمازنى أن يقول ما يشاء!

وبمراجعة هذه الحقائق، نجدُ أن المازنى قد أخطأ أوّلاً حين سَطَا على أدب غيره، ونجدُ شكرى كان مُحقا حين لم يسكت عن هذه السرقات! ولكنّه كان مُخطئاً فى اندفاعه القاسى، وتورطه إلى الإقذاع فيما كتب بعكاظ، ثم فى انتقالِه إلى العقاد، وهو لم يُسلف إليه جريرة! وحين ظهر (الديوان) أسفَ أنصار التجديد حين قرءوا كلام المازنى عن صاحبه، لأنّ ذلك يُوحى بانهيار مادعًا إليه المازنى ورفيقاه من خطوات تجديدية، إذْ لو صار شعر شكرى كشعرِ حافظ مثلاً، ففيمَ كانتْ عواصف النقد العنيف؟

إنصاف شكرى:

قلت: وهلْ كانت صلة الأستاذ بشكرى تقرب من صلة بالعقاد؟

قال أدهم: ذكرتُ فى مقالى عن الأستاذ شكرى بمجلة المجلة أنّه كان أستاذى بمدرسة رأس التين الثانوية، وكانَ متميزا بين الأساتذة، بقوّة علمه، وجدة أفكاره، وقوّة شخصيته، وكنا نعرف مكانته الأدبيّة، ونقرأُ ما أصْدَرَ من دواوين الشعر، ونلمسُ تقديرَ المجتمع المدرسى لفضله! وقد امتدتْ صِلَتِى به ولم تنقطعْ بالنسبة إلىّ، وأنا أعجبُ للّذين يقولونَ: إن الرجلَ كان سَوْداوىّ المزاج، وحيدًا مُعْتزِلاً، فأنا أعرفُه قُطبًا لدائرةِ الأدباء بالإسكندرية، يجلسُ معهم ليفيضَ فى

شئون الأدب والثقافة، وهم يسمعونَ لآرائه، كما يستمعونَ لأستاذٍ جامعى، وفيهم المهندس، والمحامى، والطبيب، والاقتصادى، وكلّهم من رجال الفكر، وكانت صُحف القاهرة ومجلاتها الأدبيّة تُسارع إلى نشرِ أدبه شعرًا ونثرًا، فما يُقال عن اعتزاله لم يكن دائماً، ولم يكن من طبيعته، ولكنه اضطر إلى اعتزالِ الأدب فترةً محدودة، لظروفٍ تطرأُ على أكثر الناس، وفى حيواتِ كبار الشعراء فى الشرق والغرب سنواتٌ غير خصيبة، ولكنّها فترةٌ تنقضى، ويعود الموج إلى تدفّقه، وسنواتُ شكرى فى الثلاثينات كانتْ حافلةً بالنتاج الزاخر فى المقتطف، والهلال، والرسالة، والثقافة، وأذكرُ أنه والى نشر مقالاتٍ نقدية بالرسالة كانتْ مصدر إعجاب المثقفين، وقد قرأها العقاد وأثنَى عليها كثيراً كعهده بإزاءِ ما يكتب شكرى، ولو جُمعت آثارُه النثرية فى هذه الفتره لملأتْ عدة كتب، ولن يكون هذا الفيضُ الممتد إلاّ مِن فكرٍ يقظ مقبل على الحياة والأحياء.

فقلت: أعرفُ هذا جيدًا، وقد قرأتُ أكثرَ ما أشرتمُ إليه، ولكنّى أسأل عمَّن تعنون، حين ذكرتم من يمدحُ شكرى لإغاظة العقاد؟

فقال الأستاذ أدهم: أنت مثقفٌ مستنير، ولا أزيدُك قليلاً أو كثيراً، حين أذكر أن الدكتور زكى أبو شادى قد أصدرَ عدة مجلات تهاجم العقاد، لأنّ العقاد لم ينظرْ إلى أدبه شعراً ونثرًا نظرة صاحبه إليه، وأبو شادى مكثر أتى عليه وقتٌ لا ينقطع فيه عن النظم، وأقولُ النظم عن قصدٍ، لأنّه لايفرق بين خطرات النفس التى تُوحى الشعر، ووثبات العقل التى تكسبه سعةً وعمقًا، وبين الموضوعاتِ العامة التى لم تتغلغل فى النفس الشاعرة لتكشفَ عن مكنون مستنير، وقد جمَع حولهَ فريقًا يُثْنون على كل ما نظم، وقد يوازنون بينه وبين العقاد، والعقّاد لا يرضى بالزيف، فجابَه هؤلاء وجابهوه، وبعضهم رأى فى مديح شكرى ما يهمل ذكر العقاد، مع أنّ لكلٍّ نجم مداره وضوءه وائتلاقه، ولاتكتفى السماء بفرقد واحد، ولكن هكذا كانوا يتصوّرون!

قلت: إننا أفرطنا كثيراً فى الحديث عن شكرى والعقاد، وربّما كان تنوّع الحديث أَجْدَى، فقال أدهم: سيتنوع إذا تكرمّت بالحضور، غير أنّى أردتُ أن أزيلَ شبهةً أحسست بها فى آخر مقالك عنى بالثقافة، وأنا اهتم جدا بآراء أديب منصف مثلك!

على أنى أزيدك شيئًا أتم به حديث العقاد وشكرى، فقد سارعتُ إلى تَعْزِيَةِ العقاد بالتليفون حين فُوجئت بنعى شكرى، فردّ على بصوت كلّه دموع وحُرْقَة، فلم أكتف بالتليفون، وسارعتُ إلى لقائه بمنزله، فوجدتُه ينظم قصيدة حارة فى رثائه، ويقولُ: حانَ الرحيل يا أخى، لقد رحَل شكرى كما رحل المازنى، ولابد أن يرحل العقاد! إذا لايحلو العيش بعدهما، وفى اليوم التّالى ظهرت جريدةُ الأخبار، وبها صورتان صورة شكرى وصورة العقاد باكيًا، ثم قصيدة العقاد فى رثاء شكرى ومطلعها:

بعد إبراهيم شكرى اليوم أَوْدَى   قَرُبَ الرحيل، لقد قارب جدّا

وقراءة هذه القصيدة تكشفُ عن معانٍ كثيرة، يعرف بعضها قوم، ويعرفُ جميعها أصدقاء الفرسان الثلاثة، فهى وحدها تاريخ حافل، لعهد مجيد.

ولاحظت أن الأستاذ قد تعب كثيراً، فودعته شاكراً، وقد زاد فى عينى مهابة وإجلالاً . .

* * *

الإمام محمد زاهد الكوثرى

فى شارع الصنادقية بميدان الأزهر ـ وهو يُشبه الحارة الضيّقة، تقومُ على جانبيْه حوانيت صغيرة، أكثرها يمتلئ بالكتب الأزهرية القديمة، بين متونٍ وشُروح وحواشٍ، فى هذا الشارع شاهدتُ شيخًا ربعة، أشرب وجهه بالحمرة، وله شيبة ذات وقار، يرتدى كاكولةً متواضعة، وعمامةً ذات طبقات أكثر مما نعْهد، وأمامه مجموعةٌ من الكتب يقرأ بعضَها فى صمت، فوقفتُ أرصدهُ عن كثب، ولكنّى وجدتُ رجلاً من العامة يدنو منه، ويحدثه، فخطوتُ لأسمَع سؤالا عن الطّلاق المعلَّق يُلقيه السائل فى وجل، منتظرًا الإجابة من الشيخ، ثم أدْهشنى أن يحكم الرجل فى إصرار بوقوعِ الطلاق، معَ أنى أعلم أنّ قانون المحاكم الشرعية الذى صدر فى مصر سنة ١٩٢٩ يمنع وقوع هذا الطّلاق استنادًا إلى أئمةٍ من غير أصحاب المذاهب الأربعة، وهم فقهاء أجلاّء ذوو شأن فى التشريع، وقد أرادَ القانون بذلك أن يُيسّر على من يُحلّون روابط الأسرة ذات الأولاد فى ساعة غضب ليتمكن الزوج من التئام الشمل رحمةً بأفلاذ الأكباد، فرأيتُ أن ألحق بالسائل لأقول له: إنّ الأمر فى مصر يجرْى على غير ما قال هذا الشيخ، وأظنّه محدود الاطلاع، فلا تركَنْ له، وقدا ستبشَر الرجلُ بما قلت، وأخذ يدعو اللّه أن يجزينى بالخير!

مضت أيام، وذهبتُ لزيارة أستاذى الجليل الشيخ محمد الطنطاوى أستاذ النحو بكلية اللّغة العربية فوجدت منزلهَ عامرًا ببعض الزوّار من العلماء، وهم يتحدثون عن شيخٍ جليل انتقل إلى رحمة ربه، هو الشيخ خليل الخالدى مُفتى القدس، وأحد الوجهاء الكبار ممّن تولوا المناصب الدينية الكبيرة فى عهد الخلافة العثمانية،

وقد أجمعوا على تضلّعه المتين فى معرفة المخطوطات العربية فى شتى فروع الثقافة الإسلامية، إذْ زار أكثر العواصم الإسلامية ـ والأوربيّة أيضًا ـ ليقرأ ما تضمّه المكتبات الشهيرة من المخطوطات، وله خبرةٌ بخطوط العلماء، ومعرفةٌ دقيقة بأحوالهم المعيشية، ومذاهبهم الفقهية، وآرائهم المختلفة فى شتّى فروع الثقافة، حتى صار المرجع الأوّل فى بابه! هكذا قال القوم، ولكنّ الأستاذ الطنطاوى صاحب المنزل عقَّبَ على هؤلاء قائلا: إنّ الأستاذ الكبير الشيخ محمد زاهد الكوثرى وكيل المشيخة الإسلامية فى تركيا من قبل، ونزيل القاهرة الآن يفوقُ الشيخ خليل الخالدى فى إلمامه بالتراث الإسلامى، لأنّ الشيخ الخالدى قد اقتصر على المؤلفات العربية وحدها، أما الشيخ الكوثرى فيقرأ التركية، والفارسية، والجركسية، والعربيّة، وقد هضم كل ما قرأ، وأصبح المرجع الأول فى هذا المجال، وعليه يعتمدُ ناشرو المخطوطات، ومصحّحو الموسوعات شرقًا وغربًا، وله باع طويل فى المناقشات العلمية، وقد وقف على نشر كثيرٍ من أمهات الكتب معلقًا ناقدًا مصحّحًا، والشيخ الخالدى ـ على فضله المشكور ـ لم يخلُ مكانه بعد، إذا أطال الله فى عمر الكوثرى.

سمعت مادار من الحديث عن الخالدى والكوثرى، فاشتقت إلى رؤية الكوثرى، وانتظرت حتّى انقطع الحديث عن الرجلْين، فسألت الشيخ الطنطاوى كيف أحظى بمجالسة الكوثرى؟ فابتسم، وقال فى دعابة: لايفوتك شىء يا رجب، إن الشيخ الكوثرى رجل متواضع على جلالة فضله، وهو دائما يصلّى الجمعة فى مسجد محمد أبى الذهب الذى يقابل الأزهر، فإذا صليت الجمعة به، فستجد جوار المحراب شيخًا وقورًا يتحلّق حوله الكثيرون، وكلٌّ يسأل عن معضلة، فهذا باحث فقهى، وذاك عالم أصولى، وذلكَ رجل منطق وجدال، وكلهمْ يسأل عن المراجع، أو يطلب الفتوى، والشيخ يجيب كل سائل بما يشفى غلته، ويظل فى مجلسه حتى تحين صلاة العصر، فيؤديها وينصرف سعيدًا، وقد قام بمجهود عدّة أساتذة ذوى اختصاص، إنه بحر لا ساحل له، فاذهب إليه إذا أردت.

دَفعنى حديث الأستاذ إلى رؤية العلامة الكوثرى، وكانتْ دهشنى عظيمة حين وجدتُ الكوثرى هو بعينه صاحب فتوى الطلاق فى شارع الصنادقيّة، فتذكرتُ أنى قلت عنه من قبل: إنه محدود الاطلاع جهْلا منى بمنزلته، وقلت فى نفسى: أيبلغُ بى الغرور أن أحكم على إمام كبيرٍ بما يخالف الواقع، مع أنّى لا أبلغ مبلغ تلميذ صغير من تلاميذه! إن للرجل الكبير رأيه الخاص، ولا يتقيد فى فتواه بقانون لا يراه صائبًا من وجهة نظره، ثم تذكرتُ أنه صاحب كتاب الإشفاق فى أحكام الطلاق وقد كتبه ردا على الأستاذ الفقيه الشيخ أحمد شاكر حين انتحى غير منتحاه! فإذا كانَ قد أفتى بوقوع الطلاق المعلق فهذا ما قامت لديه البراهين على صحته، فهو إذن إمام غير مأموم!!

حرصتُ على أن أصلّى الجمعة كثيرًا بمسجد أبى الذهب، حُبا فى رؤية الشيخ ومَن حوله من السائلين، وقد لحظ اهتمامى بما يقول، وانكبابى على تسجيل بعض آرائه فى كناشة أعددتُها لمجلسه، فبادَرنى متفضلا بالسؤال عن اسمى، وماذا أعمل، فعرفته بأنى طالب فى كلية اللّغة العربية بالسنة الثانية، فقال فى ملاطفة: وفقك الله، ثم سأل: لماذا تحضرُ دون أن تسأل؟ وكنتُ حينئذ مشغولاً ببحثٍ أعدّه عن الشاعر المغنى العباسى جحظة البرمكى، فتجرأتُ على أن أسأله عن مَراجع جحظة، فسكت هُنيهة، ثم نظر إلىَّ ليقول فى قوّة، بنى ماذا يعجبك فى أمثال جحظة! إنه مطرب شارب خمر، وواصف مجون؛ لهُ ترجمة كبيرة فى معجم الأدباء، وأولى بك أن تبحث عن أصحاب الاتجاه الخُلقى الرفيع من الأدباء أو العلماء! يا بنّى إن الشعراء ـ وجلّهم غير ملتزم ـ قد أخذوا نصيبًا كبيرا من اهتمام الباحثين فى مصر، وأنَا لا أمنع أن نبحث عن شاعر قوىّ الأسلوب، متعدد الأنحاء، ولكن أمنعُ أن نبحث عن الصّغار ممّن لا يزيدون الناس إحساساً أو فكرًا، بل يدعُون إلى منكرات يشمئز منها المؤمن الملتزم! إن كتاب الأغانى قد سيْطر على الأدباء أكثر مما يلزم، مع أنّ طالب الأزهر لو قرأ كتابًا مثل طبقات الشافعية للسبكى لوجد من الأعلام من يفوق مائة شخص من أمثال جحظة البرمكى، لا تغضبْ على يابنى فأنا أقول ما أعتقد!

سكتُّ قليلا، فقال الشيخ: هل تسمعنى شيئًا مما أعجبك من شعرِ جحظة؟ فقلتُ: يعجبنى مثل قوله:

ورقَّ الجوُّ حتى قيل هذا عتابٌ بين جحظة والزمان

فابتسم الشيخ وقال: بيتٌ حسن، ولو ترك الشاعر مجونه، وأتى بهذا الطراز لكان موفَّقًا، لقد قُلتُ لك رأيى يابُنَىَّ.

واتفق أن قابلتُ الأستاذ محمد الطنطاوى بعد محاورتى مع الشيخ، فذكرتُ له كلّ ما دار بينى وبينه، فسأل الشيخ الطنطاوى كالمتعجب: أقال الكوثرى لك ما يدل على ارتياحه لطبقات الشافعية؟ قلت: نعم.

فقال: كم يمتلئ السجن بالمظلومين، إنهم يأخذون على الكوثرى تعصبه الشديد لفقهاء الأحناف، وهاهو ذا يمدح طبقات الشافعية أوَلْو كان متعصبًا أما اختار كتاب (طبقات الحنفيّة)؟! قلت: ياسيدى، لا شبهة هنا فى التعصّب أنا مثلا شافعى المذهب، أفئن أفتيتُ بما أعرفه من فقه الشافعيّة أكون مُتعَصبا لهم، أم أكون مجيبًا بما أعلم! قال الشيخ: هذا حق، كلام الناس كثير ولا معنى له.

وكان النبهاء من رجال الأزهر فى الأربعينيات يلتفون حول جماعةِ المفتى الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم، وهم من صفوة المفكرين من العلماء، وفى طليعتهم الشيخ محمود شلتوت، والدكتور محمد البهى، والأستاذ محمد محمد المدنى، ولهم باع طويل فى البحث التجديدى، ومناقشة القديم الذى تبدو به مظاهر الضعف، ولكن الأستاذ محمد زاهد الكوثرى قد وقَف من هذه الجماعة موقفًا معارضًا: ينقد فى شدّة، ويهاجم فى ضراوة، ويرجع باللاّئمة على الإمام محمد عبده، والإمام المراغى إذهُما فى رأيه مصدرُ الفتاوى الجريئة، وأذكر أن المفتى الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم قد استُفْتِى فى لباس (القُبَّعة) فأجازَها معتمدًا على نصوص استمدها من كتب السّابقين، وموافقًا ما سَبَقَ أنْ قرره الإمام محمد عبده من قبل، فثارتْ ثائرة الشيخ الكوثرى، وكتبَ مقالات حارَّةً لسْنا ننقده من أجلها، ولكنَّ حدتها البالغة، وجُنوحها إلى التهجم الواضح جعلها تحيدُ عن المجادلة

بالحسنى، بلْ إن الأستاذ الكوثرى قد تورّط فى استدلاله بالآية الكريمة ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[1].

مستنبطًا أن لبسَ القبّعة من بعض مظاهر هذه التولية المنهىّ عنها، ولم يحصر الهجوم على مقال المفتى الأكبر فحسب، بل تناولَ الشيخ شلتوت، والشيخ المدنى، مع أنهما لاصلة لهما بهذه الفتوى! كما تناولَ الإمام محمد عبده بالتخطئة الصريحة، وتوالت مقالات الكوثرى فى مجلة الإسلام لترمى شواظها المُحرق، وكأنّه يهاجم أعداءً لا زملاء فى جبهة واحدة، فساءنى كل الإساءة أن يبعُدَ الكوثرى فى غلوّه هذا البعد، وهو مَنْ هو، رجاحة عقل، وبُعد نظر، فصّممتُ على أن أسأله العدولَ عن الهجوم الجارح، وجئتُ إلى مسجد أبى الذهب متحمسًا، وبدأت القول قبلَ أن يسألَه أحد من تلاميذ الحلقة المعهودة، فذكرتُ فضل المفْتى وشيعته، ونظر الأستاذ إلىّ فى غضب مكتوم، ثم واجهَنى بقوله: أنتَ يا بنى طالب صغير فى كلية تدرّس علوم اللّغة لاعلوم الدين، ويَجِبُ أن تصبر طويلا حتى تفهم ما أعنيه، إنّ مجلة الرسالة التى تنشر للمفتى ولشلتوت لاتنوى الخير للمسلمين، فتسرعتُ قائلا: سيدى إن الرسالة هى المجلة الرفيعة المستوى التى تفوح بعبير الإسلام، ولها صوتُها المسموع، وأنتَ حين تحاربها متكلما وكاتبًا إنّما تحاول أن تهدم قلعة من قلاع الإسلام! فحولَ الأستاذ وجهه عنى، والتفت إلى القوم يغيّر مجرى الحديث.

وقد انقطعت عن المسجد بعد ذلك محاذرًا أن أثير غضب الرجل الكبير، ثم عرض لى أن أشترى بعض الكتب من مكتبة الأستاذ حسام الدين القدسى، بجوار دار الكتب المصرية، فما كاد الأستاذ حسام يرانى حتى صاح بى: لماذا انقطعت عن مجلس الإمام الكوثرى؟ إنه سأل عنك كثيرًا، وكان الأستاذ حسام الدين ممّن يحرصون على حضور مجلس الجمعة، وقد سمع محاورته لى من قبل بشأن (جحظة البرمكى) ومن التوافق أنى نشرتُ بالرسالة بحثًا عن جحظة، وقرأه الأستاذ حسام قبل أن أزوره، فقال متضاحكًا، لعلّك نشرت مقال جحظة لتجهر

---

(١) سورة المائدة الآية ٥١.

بمخالفة الأستاذ؟ فقلت كَلاً والله، المقال قد شغل تفكيرى، وسهلتْ علىَّ صياغته فبادرتُ بنشره دون أن أتذكر كلام الأستاذ.

كان فى الأستاذ حسام الدين القدسى أُنْسٌ وملاطفة، فأشار على أن أجلس معه بعض الوقت ليحدثنى عَمَّا أجهل من أمر الكوثرى، ولا زلتُ أذكر من حديثه الجيد أن الرجل زاهدٌ كاسمه، وأن الأستاذ «محمد أبو زهرة» قد لمس ما يعانيه من ضيق فى الرزق، فسعى إليه كى يكون أستاذًا للشريعة الإسلامية بقسم الدراسات العليا لطلبة كلية الحقوق بالقاهرة، كى يتَّسع له المورد على نحو كريم! والأستاذ الكوثرى جديرٌ بأن يفيد الطلاب، وأن يُنشئ جيلاً من الباحثين، ولكنّ الشيخ قد اعتذر لأنه يُعانى آلام الشيخوخة، ولا يستطيع أن ينهض بالتدريس كما يحب، وطالَ رجاء أبى زهرة وطال امتناع الشيخ، لأنه لا يريد أنْ يقصّر فى الشرح! هكذا تخيل الرجل، مع أن مظنة التقصير متوهمة لا حقيقة لها، ولكن تقدير المسئولية العلمية حال دون التنفيذ.

ثم قال الأستاذ حسام، وشىء آخر أذكره عن الكوثرى، لقد قام بتصحيح مجلّدَيْن كبيرين من كتب التراث وكتب لهما مقدمة حافلة، مع تعليقات كثيرة تأخذ نصف الصفحة فى كلّ أوراق الكتاب، فرأى الناشر الأستاذ عزت العطار أن يعطى هذا المحقق ما يعادل ثمن خمسين نسخة من الكتاب كبعض ما يستحق من الأجر، ولكن الأستاذ الكوثرى ـ برغم حاجته الشديدة ـ قد رفض فى تصميم، وقال: إذا أخذت الأجر الدنيوى فسيضيع الثواب الأخْروِىّ، وكيف استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير؟ وواضح أن الأجر الدنيوى لايمنع ثواب الله، إذ أن الأعمال بالنيات، ولكنه الاحتراز.

وثالثة قالها القدسى، وهى ذات مرارة موجعة ـ فقد ذكر أن الكوثرى منذ عامين أخذ يبيع مطبوعات مكتبته ومخطوطاتها بثمن بخس، ليجد ثمن الدواء له ولزوجته المريضة، وقد عرض عليه الأستاذ أحمد خيرى ـ وهو من أعيان البحيرة ـ أنْ يقوم بشراء ما يلزم من الدواء، فرفض مُصِرا مستنكرًا، وقال: إن ذلك سيرهقه نفسيا فيزيد المرض!

سمعتُ هذا النوادر من الأستاذ حسام، فكنت بين الإعجاب بترفع الشيخ، والأسف الحار لضياع إمام كبير، هاجر من بلده فارا بدينه من طغيان مصطفى كمال، ثم لايجد الراحة فى شيخوخته الواهنة وتذكرت أن ما عند الله أَوْفَى وأجَل، ولن يضيع أجر المحسنين، فكان هذا عزائى . . .

* * *

الأستاذ صديق شيبوب

ظل الكاتب الكبير الأستاذ صديق شيبوب مدى أربعين عاماً قائماً على تحرير الصحيفة الأدبية بجريدة البصير، وله كل أسبوع مقالٌ نقدى ، أوبحث أدبى، أوتحليل لموقف اجتماعى، هذا غير محاضراته فى أندية الإسكندرية،إذ كانت الحركة الأدبية بها لعهده جياشة فائرة، تكاد تنافس القاهرة،لولا ماللعاصمة من قدرات مادية علمية رجحت بها على الثغر، ولكن إذا ذكر التاريخ الأدبى للإسكندرية فى الحقبة الماضية فللأستاذ صديق شيبوب مكانه المشهود، ودوره المجيد.

وقد انتقلت سنة ١٩٤٩ من القاهرة إلى الإسكندرية طالباً بالمعهد العالى للتربية بها، ولم أكن أعرف أحداً من أدباء الثغر فشعرت بوحشة كبيرة، لأنى لاأستطيع العزلة بمنزلى دون اتصال برجال الفكر،وقد حدثت نفسى أن أذهب إلى جريدة البصير، فأقدم مقالا أو قصيدة تكون بدء التعارف بالأستاذ صديق، وسأجد من زملائه وأصدقائه من أسعد بمعرفتهم فيؤنسون وحشتى الفكرية، ولكننى تقاعست قليلاً، ثم حدث ماحتم لقاء الأستاذ صديق شيبوب إذ كان علم النفس من أهم المقررات علينا بالمعهد، وكان يتناوب تدريسه دكتوران من أساتذة المعهد وفدا من الخارج،وأحدهما ممتازٌ لايرقى الشك إلى مقدرته العلمية،وتحليله النفسى مع نصاعة الأسلوب، واطراد التفكير، وهو الدكتور أحمد عزت راجح، أما الثانى فلانكاد نفهم شيئاً ممايقول، لأن الأفكار تصل إلينا غير متسلسلة، والاصطلاحات العلمية التى لاعهد لنا بها تتكرر فى حديثه مزدحمة محتشدة دون أن يفصح عن مدلولها، وكان يخص العلامة النمسوى الشهير سيجموند فرويد باهتمام؛ إذ يعيد

ويبدئ فى الحديث عنه دون أن يوضح مايعنيه، فتذكرت أنى قرأت سلسلة من المقالات النفسية بمجلة الرسالة عن فرويد، كتبها الأستاذ صديق شيبوب عقب رحيله، وللأستاذ بيانه الواضح وتحليله المفيد، فهرعت إلى لقائه كى يعيرنى هذه المقالات، واستبقلنى الرجل ببشاشة عاطفة، وأذكر أنه تواضع فقال: إنى أكتب عن هؤلاء هامشيات لاتتغلغل فى قضايا العلم ودروبه المظلمة، قلت: قد تكون هذه الهامشيات حلقة اتصال بين البحوث النفسية لدى الطالب الناشئ، ووعدنى أزوره غداً حيث أحضر عدة مراجع نفسية مع مقالاته المطلوبة، وقرأت ماكتب الأستاذ، فإذا الوضوح التام والتسلسل المتصل، والمقدمات المفضية إلى النتائج فى غير رهق، فأخذت أحصل ماأجده من المعلومات تحصيلاً ميسوراً لاتكلف فيه، ووجدتنى بعد ذلك أستمع إلي مايقول أستاذنا بالمعهد العالى فلاأجده يأتى بالجديد.

إذاعة الإسكندرية :

كانت إذاعة الإسكندرية تقدم ركنا أسبوعياً للشعراء، وقد احتفل معهد التربية بمناسبة تربوية، فألقيتُ قصيدةً بالحفل، وجاء مندوب الإذاعة ليسجل الكلمات كى تعاد فى ركن الأدب، وفوجئت بأن قصيدتى قد بترت بتراً هوى بها، لأن الحذف لم يكن متصلا، بل وجدت البيت يذكر ثم يحذف مابعده مع أنّه متصل به، وعز علىّ أن يحدث ذلك، فذهبت إلى القائم على باب الأدب فى الإذاعة، فقابلنى باستعلاء وأعلن أن البث الإذاعى يخضع لاعتبارات يعرفها هو، ولاأعلم عنها شيئاً، فقلت له: يجوز أن تحذف بعض المقال، وجانباً من البحث العلمى، ولكن القصيدة كالقصة عمل فنى متكامل لاسبيل إلى اختصاره دون إجحاف بالفن الأدبى فقال لى، أنا أحذف من قصائد الشاعر خليل شيبوب ماأريد، وكان رحمه الله لايجد فى هذا الحذف ماينقص القصيدة، بل واصل الإذاعة الشعرية لدينا فى رضا وارتياح! فيأتى طالب بالمعهد العالى ليعترض!

سمعت ما قال المذيع، فخرجت آسفاً، ولم أصدق أن الشاعر الكبير الأستاذ خليل شيبوب وجميع المجلات الأدبية ترحب بشعره المؤثر، يرتضى هذا الوضع، وكان قد انتقل إلى جوار الله منذ بضعة أشهر فساقتنى قدماى إلى مكتب شقيقه الأستاذ صديق شيبوب، ولم أكن موفقاً فى بدء الحديث، لأنى دخلت فى الموضوع بدون تمهيد، والأخ الحزين قريبُ العهد بفراق أخيه، فوجدت لون وجهه يشحب، وتحدث كأنه يبكى، فأفزعنى أنْ أنكأ جراحاً تحاول الالتئام، وأخذت أعتذر لحماقتى، ولكنه ترك مكتبه، وانتقل إلى جوارى، وقال فيما يشبه الهمس: ما قاله المذيع صحيح لاشك فيه، وطالما كان موضع الشكوى من خليل، ولكنه كان يبعث كل أسبوع برسالة شعرية إلى عزيزة لديه، لايملك أن يراسلها فى منزلها، وهى تنتظر رسالته الشعرية فى موعدها المحدد، وكان يتعمد السهولة المفرطة فى أسلوبه من ناحية، ثم يتجلى إلى التسامح مع بعض ممن يفرضون أذواقهم من المذيعين عليه من ناحية، لأنه يحرص على أداء الرسالة فى موعدها، ثم قال لى: نشر الأستاذ خليل قصيدةً بالرسالة من وحى هذه العزيزة الهاجرة تحت عنوان «العمر الضائع» فى أكثر من ثلاثين بيتاً، مع أن الذى أذاع القصيدة حذف منها عشرة أبيات، وقد رجعت إلى القصيدة فوجدتها أنة باكية، وفيها يقول:

قد أرهقتنى عزلتى فكأننى ... من قبل دفنى قد دُفنت تِبَاعاً
أصبحتُ مثل المومياء محدثاً ... عن غابر لى لم يكن ليذاعاً
بُعْداً لحبك إنه البحر الذى ... غالَ الغريق ومارأاه القاعا
الصدرُ يطفح بالمرارة ثائراً ... والنفسُ واجفةٌ تطير شعاعاً
وتمضنى ذكرى هواكِ كأننى ... فى كل يوم أستجد وداعاً

صداقة نبيلة:

وقد خصنى الأستاذ من بعد بعطفه، وأذكر أنه عرض علىّ أن أصحبه لرؤية «فيلم» خاص بقصة رائعة للفيلسوف الروسى تولستوى، وأخذ يشرح لى كل

ماغمض، لأن الحوار يدور بلغة لاأفهمها، وكان معنا الأستاذ الأديب نقولا يوسف، فقال لى: سأختار أنا الفيلم القادم، ولكن لاأستطيع أن أبلغ مبلغ صديق فى الشرح والتوضيح، وهكذا سعدت بالأستاذين سعادة متصلة.

وفى أحد مواسم الصيف، قابلت زميلاً عزيزاً يعد رسالة علمية عن الفيلسوف الروحى «محيى الدين بن عربى» فدار الحديث كما اتفق، ولكنى وجدته يعانى أسفاً لايبوح بسره، فقلت له ماذا بك؟ فقال: لقد حضرت إلى الإسكندرية لمقابلة الأستاذ الدكتور رئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب، لأن له بحوثاً رصينة عن ابن عربى، وبذلت جهداً كبيراً حتى ظفرت برؤيته، وحدثته عن رغبتى فى أن يرشدنى إلى بعض المصادر التى تنفعنى فى البحث تاريخياً وفكريا ، ولكنه ابتسم ، ثم قال: أليس لك مشرف؟ ارجع إليه، فإذا لم يسعفك، فابحث عن موضوع آخر، وانقطع حديثه المقتضب، فخرجت يائساً، قلت له: إنى أعرف أن الأستاذ شيبوب كتب عدة فصول عن ابن عربى، فهو إذن يُلم بكثير من المصادر، وسأزوره بمكتبه فى المساء، فتعال معى، فقد يعوضك الله خيراً، وفى الموعد كنا بمكتب الأستاذ بالجريدة، فقدمت إليه صاحبى، محدداً رغبته العلمية، فلا أنسى تحديق عينه فى وجهى لمدة طويلة، ثم ابتسامته المشرقة التى صاح بعدها يقول: عجباً لك يا أخى أنا فى منزلة من يرشد باحث الدكتوراه فى موضوع فلسفى! إن ابن عربى قد هزنى فى بعض اتجاهاته الإنسانية، فحاولت أن أقرأ عنه، وأن أفيد القارئ بتلخيصات يسيرة عما قرأت، فإذا كان صاحب هذه التلخصيات ثقة لديك ولدى الباحث، فإنى سأرجع إلى مكتبى اليوم لأحضر بعض المراجع التى اعتمدت عليها، وأقدمها إليكما فى الصباح، ولعلها تنفع! قلت: ذلك ماكنا نبغى.

وذهب الزميل فرأى سبعة كتب تتحدث عن ابن عربى، فتسلمها شاكراً، ووعد بردها بعد قراءتها، وقد فعل، ثم حدثنى أنه وقف منها على صيد ثمين لم يتهيأ له من قبل وأذكر أن صديقاً قال لى بعد هذا اللقاء أكونُ سعيداً لو قمت بإفادة باحث يستفيد، ولكن الفلسفة معقدة! فلاتقذف بى فى الطوفان.

الكاتب المزيف:

قرأت فى جريدة البصير عدة بحوث عن الحدود بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، كتبها محامٍ شهير بالإسكندرية، ثم تعرفتُ به فى مكتب الأستاذ صديق، فأثنيت على البحوث، وقلت له: إن نشرها فى مجلة إسلامية أجدى، لأن قراء البصير لايهتمون بهذه المقارنات، كما أن المجلة تبعث مكافأة مادية، وقد سر المحامى، ووعدنى أن أقابله في الغد، ليكتب صورة متماسكة أُرسِلها أنا لمجلة «التضامن الإسلامى» بالسعودية، وتم ذلك، وأرسلت المقال فنشره الأستاذ محمد سعيد العامودى رئيس التحرير لفوره، ثم فوجئت بعد شهر بخطاب من الأستاذ يعلن أن المقال مسروق من أوّله لآخره، ويحدد مكان السرقة بالصفحة ورقم الطبعة، فأسفت أسفاً شديداً، وذهبت للأستاذ صديق أعلن له ورطتى مع الأستاذ العامودى، فقال: آخر ماكنت أظن أن محامياً قانونيا يسرق المقال وينشره مرتين، مرة بالإسكندرية، وأخرى بالسعودية! قلتُ: فماذا نصنع؟ قال: سأخبره أنا إذا حضر إلى الجريدة، ولم يشأ الأستاذ صديق أن يجابهه مباشرة فقال له: أرجو أن تدلنى على المرجع الذى اعتمدت عليه فى مقال كذا بالبصير، قال: لقد غاب عنى اسمه، ولم أعد أتذكر، فانفعل الأستاذ وقال: فى هدوء: لن أنشر لك مقالاً إلا بعد معرفة مرجعه!

وقابلت الأستاذ. فأخبرنى بما كان، فقلت له: ولماذا لم تواجهه بخطاب الأستاذ العامودى، قال: لاأحبّ أن أثير عداوةً لالزوم لها، قلت: سأواجهه أنا، لأنى أحرجتُ مع العامودى، قال: لك ذلك، وسيعلم سلفاً أنى أدركت ماكان، فلايلطخ الجريدة بهذه السوءات! ثم قال الأستاذ مبتسماً: أتعرف كيف بدأت صلة هذا الكاتب بجريدة البصير؟ لقد كتب ذات يوم من أيام رمضان المبارك مقالاً عن الصوم، لايخرج عن معلومات تلميذ بالمدرسة الابتدائية، فلم أشأ أن أنشره رعايةً لمكانته القانونية، ثم فوجئت به يذيع فى كل مجلس أننى أحارب المقالات الإسلامية وأضيق بنشرها، وجاءتنى الفرية فقلت: ياقوم أمامكم البصير، تجدونه

يحتفل فى كل موسم دينى بمايوجه إليه من قصائد إسلامية وبحوث دينية، فكيف تصدقون هذا؟ وحادثت الرجل تليفونياً لأبلغه أن المقال لم ينشر لأنه دون ماينبغى أن يكتبه باحث ممتاز مثله، ومن يومها أخذ يمطرنا بالبحوث القانونية فأنشرها، دون أن أعلم أنها مسروقة!

عبد السميع المرسي:

ورثت عن والدى صداقة رجل فاضل، لم يتعلم فى مدرسة، ولم يجلس إلى أستاذ، ولكنه كان نادرةً فى حفظه يسمع القصيدة مرة واحدة فيروى بعض أبياتها، كان نادرةً فى نظراته الاجتماعية، حيث لاتخدعه الظواهر بل يحكم على كل إنسان بمايدل علي غور بعيد، ونباهة مفرطة، كما كان نادرةً فى بؤسه إذ ظل لايجد قُوت يومه إلا بعسر شديد. ولايترك ملبسه إلا بعد أن تتناهبه الريح! ثم جاءنى نعيه، وأنا أصطاف بالإسكندرية، فرأيت أن أرفه عن نفسى بكتابة مقالٍ عنه يبرز مواهبه المستترة، ويكشف عن معدنها، وقلت فى خاتمته: إن الرجل قد عاش فى قريته المتواضعة كما تنبت الزهرة الجميلة فى أعلى الجبل، ترسل العطر ولايشمه أحد، ثم تلوى بها الريح عند الذبول فتهوى وحيدةً بائسة لايحفل بها إنسان، وتقدمت بالمقال للأستاذ صديق لينشر فى البصير، فقال بعد الفراغ من قراءاته: لم أُسَرَّ بنشر مقالٍ كما سأسر بهذه الكلمة الرائعة، أنت متحدث عن رجلٍ مغمور لايعرفه أحد، وقد ذهب إلى ربه دون احتفاء، فيجب أن يحتفى البصير بذكراه، ثم التفت إلى زميله الاستاذ عبد الحكيم الجهنى المحرر بالجريدة وقال: أبشر ياعبد الحكيم، لقد وجدنا من سيتحدث عنا بعد الرحيل، لأن الأستاذ رجب سينظر إلينا كما نظر إلي صاحبه عبد السميع، لنطمئن من الآن! ثم نشر المقال فى موضع بارز، وجعل عنوانه (شخصيات منسية).

ومن طريف مالحق بهذا الموضوع، أنى تحدثت فى المقال عن مطارحات شعرية وقعت بين عبد السميع والشيخ على عقل العارف بالله الشهير، وماكاد المقال يظهر حتى جاء الدكتور حسن ظاظا إلى جريدة البصير، يطلب أن يرانى، فقد يكون

لدى ورثة عبد السميع بعضُ قصائد الشيخ، وهو يهتم بجمعها، كذلك حدثنى الأستاذ صديق، وقال إن لصاحبك المنسى كرامات.

النقد الرقيق:

اختص الأستاذ بتحليل مايصدر من المؤلفات، ولكنه كان يميل إلى إظهار المحاسن بإفاضة، فإذا تعرض للمآخذ كتبها فى إيجاز، وفسح للمنقود طريق الدفاع عنها، وقد تحدثنا فى هذا الاتجاه، فقال الأستاذ: إن كل فتاة بأبيها معجبة، وكلّ من كَتَبَ يتوقع الثناء المستطاب فلابد أن نعرض مانقدر على عرضه من المحاسن المشاهدة دون مبالغة! ثم نأتى للمآخذ بما يشير إليها، ،حينئذ يلمس المنقود، دلائل الصدق، فلايسىء الظن، وهذا أقوم السبل إلى التوجيه، وهذا السلوك المهذب قد أثار عليه ثائرة الأستاذ حبيب زحلاوى، فعقب يقول: إنه يخفى بعض الحقائق، وذلك لأن الأستاذ «صديق» عرض قصة رمزية للدكتور بشر فارس فخصها بكثير من الثناء، وجعل النقد متجهاً للأدب الرمزى بنوعٍ عام لابقصة الدكتور بشر، وكانَ الأستاذ حبيب قد نقد قصة بشر من قبل نقداً جارحاً، فانتهز كلمة الأستاذ شيبوب ليعيد الكرة، وليرمى الناقد بتعمد الغفلة عن مساوئ القصة، ولم يرّد الأستاذ «صديق»، حيث اكتفى بالقول بأنّه قَدَّمَ وجهة نظره، وليس من همه أن يفرضها على القراء فلْيعارضها من يشاء!

هذه شجون مختلفة، جاءت بها الذاكرة، فسردتها كما تواردت بدون تنميق وهى فى غايتها الأدبية تلفت الدراسين إلى جهود ناقد أدبى بصير..

***